دراسة نقدية لرواية "سيرة حمَّى"

د. يوسف حسن العارف

كنت في وادي ذي غزال!!

مدخل وفاتحة!!

يا إلهي رجل أسود وأربع نساء بيض!!
شددت شعر رأسي حتى خلته يتساقط بين أصابعي تذكرت هذه الصورة وأنا أستعيد ذكرياتي في الطائف المأنوس حيث كانت الفتوات والمقاشعات بين عتاولة الحارات (اليمانية، الشرقية، الشهداء، وحارة بقيلي)!!
أتذكر الشاب عمر أبو الشناشل، فتى (اليمانية) الذي لا يغلبه غلاب وأخاه فايق/ فائق الجمال والصورة!!
أتذكر الشاب أحمد عدس ودراجته النارية التي تساوي مرسيدس اليوم أو لكزس!! ودوراته اليومية ما بين العصر والمغرب يستعرض بها وأمامه يركب الوجيه!!
أتذكر (..... الأرض) قصير القامة/ مفتول العضلات صاحب (الشون) و(المفكات) و(الشبرية) وياويل من يعتدي أو يصادم أو يتحدى!!

تذكرت شبرا، ونجمه، ودار التوحيد، ومكتبة السيد، ومسجد الهادي وابن عباس، وسوق القزاز والملك فيصل يوم استقبل المشير إسماعيل الأزهري رئيس السودان ونحن طلاب المدارس نصطف في الطريق من المطار إلى قصر شبرا وننشد:
فيصلنا يا فيصلنا الله يحمي فيصلنا

تذكرت الهدا والشفا ووادي غزال وجبل دكا وما حوله من الأودية والشعاب التي احتضنت كثيراً من رحلاتنا العائلية والمدرسية وجيران الحي ورفقاء المجايلة العمرية.
تذكرت النزهة والشهداء، قروى، المثناة، وقصيدتي عن الطائف المأنوس التي قلت فيها:
هذي (حوايا) والبساتين التي
هذا (غدير للبنات) يروق لي
أما (الشفا) فوديعة من خالق
كم أخرجت للفن من فنان
إن حطت الأمطار في الغدران
جنات عدن يا بني الإنسان(*)

تذكرت ذلك كله وأنا أقرأ الحوار المؤثر بين أبي سعد وصديقه حاتم.. ولكني لم أتذكر صورة كالتي حكاها حاتم ص ص 142-145!! الرواية (سيرة حمَّى) – التي نحن بصدد التعريف بها وقراءتها نقديا!! فعرفت أن تلك قصة خيالية تحتاجها مثل هذه المدونة الروائية من باب التشويق والأنسنة وتلطيف الأجواء الجادة في المتن الروائي!!

ولما جثمت على دنيانا جائحة كورونا/ كوفيد 19، ظهر في بلادنا ما عرف بـ(أدب العزلة) فظهرت نصوص شعرية وكتابات قصصية قصيرة وروائية، ومقالات أدبية منها – على سبيل المثال -:
– ديوان الجائحة/ خماسيات شعرية لصاحب هذه المقاربة النقدية.
– ذباب الوقت/ تدوينات على جدار الحجر للدكتور سعيد السريحي.
– مخطوطته الأخيرة للدكتور صالح أحمد السهيمي.
– قيس يمكن/ سرديات العزلة للدكتور حسن النعمي.
وفي خضم هذه المدونات الكورونية تصدر الرواية الموسومة بـ(سيرة حمَّى) للقاص والأديب خالد اليوسف عن نادي نجران الأدبي ومركز الأدب العربي للنشر والتوزيع في طبعتها الأولى 1442هـ/2021م، والتي تمثل خطأ مغايراً للمدونة السردية التي أنتجها خالد اليوسف فيما قبل أو أسلوباً روائياً جديداً يتخذ من فن (المقامة) في تراثنا الأدبي فضاءً أسلوبياً، ومن اليوميات الكورونية فضاءً موضوعياً، وهنا تكمن الحداثة والجِدَّة والمنهجية الروائية والأسلوبية.

يمكن تقسيم المتن الموضوعاتي لهذه الرواية إلى محاور (خمسة) على النحو التالي:

3/1 من 1-4 معطى روائياً خارج الإيقاع الكورونى وكأنها مدخل حكائي مستقل عما بعده وكأن الراوي يصور الحالة المجتمعية قبل كورونا فالناس في حركة وترحل وانتقال من المدن إلى الصحاري، وبطل هذه الحكاية (أبو سعد/ الدكتور خزيمة) الذي يشير في هذا المدخل إلى البطل الثاني في الرواية وهو رفيقه (حاتم/ أبو أيمن) والمجال الأدبي والتاريخي والآثاري الذي يجع صداقتهما ورفقتهما الممتدة منذ الطفولة وحتى العهد الكورونى!!

3/2 ثم يأتي المحور الثاني الذي يحمل التقسيمات الروائية ما بين 5-7 وفيها نجد اليوميات الكورونية منذ بدأ الحجر والعزل والحظر من التجوال منذ أواخر رجب 1441هـ/ أكتوبر2021م. وكأن هذه الجزئية من الرواية مدخلاً ثانٍ وتهيئة للقارئ/ المتلقي ليدخل في أجواء الرواية بلغتها (المقامية) ومعاناتها (الكورونية) والتي تبدأ من التفريعة الروائية رقم (8).

3/3 وعبر التفريعة رقم (8) نجد أنفسنا أمام قصة طويلة، أو رواية قصيرة وفيها الكثير من التناصات مثل:
* العنوان/ حدثنا السعودي قال. والذي يذكرنا بقصة: حدث أبو هريرة قال، للقاص التونسي محمود بن سلمة المسعدي الصادره عام 1985م ،

كما يذكرنا بكتاب نقدي للإعلامي والأديب الدكتور فهد العرابي الحارثي بعنوان (قال ابن عباس : حدثتنا عائشة).
* الأسلوب/ فن المقامات التي تذكرنا بالتراث المعروف.
* اليوميات/ المؤرخة لحوادث الوباء (كورونا) ومساراته المتعددة.
* التناصات الشعرية/ التي كتبها بعض شعرائنا السعوديين عن الجائحة. وأيام كورونا مثل الشاعر حسن الزهراني، الشاعر يحيى رياني، الشاعر عوض العمري، وكذلك نص شعري للشاعر الخليجي راشد آل عيسى.
* التناصات القصصية/ التي كتبها مؤلف الرواية الحقيقي/ خالد اليوسف وهي: الخيبات، لذائذ الساعات العشر (عشر قصص قصيرة جداً)، قلق من "يوبي"، الهاجرة، الحمَّى، بكاء الجدران.

وبهذا نكون أمام نوعين من أنواع التناصات، التناص الداخلي للمؤلف نفسه، والتناص الخارجي لآخرين غير المؤلف الحقيقي ولكنه تضمين أو إيحاء أو اقتباس او إحالة مقصودة بوعي أسلوبي وروائية مخطط له مع سبق الإصرار.

3/4 ثم يجئ المحور الرابع وهو الذي يضم التفريعات 9-14 وهي قصة طويلة أو رواية قصيرة عن جولة المؤلف/ البطل د. خزيمة ورفيقه/ حاتم بعد فك الحظر الكوروني ورحلتهما إلى الطائف وما عانياه فيها، وما استفاداه من معرفة حضارية وآثارية وذكريات عن الطائف/ أمسه وحاضره.

3/5 ثم تقف الرواية عند المحور الخامس والأخير عبر المقاطع والتفريعات 15-17 وفيها نجد ختام الرواية حيث يصاب البطلان بداء كورونا وهما في آخر أيام رحلتهما إلى الطائف فيمكثان فيها إجباراً وإكراهاً بسبب الكورونا فيدخلان إلى الحجر والعزل لإصابتهما بالفيروس، وهو الذي كانا يتحدثان عنه إخباراً ورواية لكنه اليوم يصبح حقيقة ماثلة إصابة بالفيروس والدخول ضمن المصابين!!

ومن هذه التفاصيل يبدو أن القراء/ المتلقين سكونون أمام رواية تشكلت من قصص طويلة فضاؤها العام هو (أدب العزلة) الذي هيأته للمبدعين جائحة كورونا/ كوفيد 19.

وعبر هذه المحاور (الخمسة) يتشكل المتن الروائي والفضاء السردي الذي يحتضن الكثير من الجماليات الفنية، والأيقونات الروائية وما فيها عبر الجماليات التالية :
أولاً: التنوع والتناغم الحكائي: وذلك من خلال البناء الروائي المختلف عن الكتابات المعهودة حيث التجريب وتداخل الأجناس الأدبية فنجد التناصات الشعرية، والسرديات القصصية (ق.ق.ج) والشعر، والرواية، واللغة (المقاماتية)، وهذا التنوع يوحي بالتماسك والتناغم الحكائي المثير للدهشة بما فيهما من جماليات التصاوير الفنية وجماليات التوازن بين الخطابات السردية المتنوعة، ومساحات الأجناس الأدبية المتجانسة والمتناغمة مع الأحداث.

وهنا تتبلور معطيات تجريبية جديدة وناجحة على المستوى التكويني للرواية ككل ففيها جمع بين البيئة العميقة للنص الروائي والصياغات السردية المتجاوزة لقاعدة (الصفاء الأجناسي) والموغلة في استثمار التقارب والتداخل بين الأجناس القولية والكتابية المنتمية لعالم الأدب.

ثانياً: البناء السردي واللغة الشعرية: وتبرز هذه الجمالية من خلال الأبنية اللغوية والحوارات السردية والاستعانة بالموروث اللغوي وتعدد الأصوات والشخصيات الروائية، وتنامي المستويات اللغوية وفضاءاتها التراثية والأسطورية التي ترفد النُّسُق الجمالية الكتابية وتجعلها مهيمنة على السياق الروائي وحاضنة له بشكل أو بآخر.

ثالثاً: الجغرافيا السردية: وتتضح هذه الثيمة الجمالية من خلال البعد الجغرافي الذي وظفه السارد/ الروائي في متنه الروائي فيجد القارئ التضاريس والمناخات والأماكن والطقس والمعالم الآثارية والتاريخية والتجول في مناطق المملكة السعودية حيث الأحساء ونجد والحجاز والجنوب، كما نجد الصحاري والجبال والشعاب والوديان والفصول المناخية الصيف والربيع والشتاء، والمدن والأحياء وملامحها الجغرافية.

وكل هذه الجغرافيات تتوج بالأساليب القصصية الشائقة والتوظيف المكاني الدقيق والعناية بالوصف المفصل والتصوير البليغ.

وينبثق عن هذه الجغرافيا السردية – كجمالية فنية – (الزمكنة)، فنجد القاص والروائي/ خالد اليوسف يسعى لاقتناص الزمن واستثمار الأبعاد الزمانية عبر المسرودات التاريخيثة والواقعية والمعاصرة، والماضوية في تشكيلة سرد/روائية فاتنة حد الجاذبية.

ونجد التبادلات الزمانية ضمن أسلوبية الروائي فمن الزمن النفسي إلى الزمن الاسترجاعي إلى الزمن الواقعي/ الحقيقي، إلى الأزمنة التاريخية المتتالية وكل هذا يوصلنا إلى تجسيد الرؤيا والفلسفة تجاه الواقع والمجاز الذي تشكله الرواية.

وعبر هذه الجغرفة السردية، يتبدى (المكان) حيث تعدد (الأمكنة) وحمولاتها الجغرافية والتاريخية والآثارية والأسطورية وتنامي (الأمكنة) من صحراء ومدن وأبراج ووديان وجبال وأرياف وقرى ومساجد ومزارات وأسواق ومطاعم وتتوزع هذه (الأماكن) ما بين مناطق المملكة العربية السعودية حيث الحجاز والأحساء والجنوب ونجد والشمال مما يوحي بالروح والفضاءات الوطنية فالأمكنة تتآلف وتتقارب من مناطق شتَّى وهنا قمة التمازج الوطني يتوج ذلك كله بالشخصيات وأبطال الرواية الذين يمثلون هذا الخليط والتمازج الوطني!!

وكل ذلك عبر أسلوب وصفي دقيق وتفصيل موسَّع لهذه (الأماكن) الروائية والحقيقية وفي لغة مفعمة بالشعرية والتوثيق التاريخي/ الاجتماعي وتكثيفاً لغوياً وتجريباً كتابياً واحتضاناً لكل الجماليات الفنية بناءً متكاملاً وسرداً نوعياً.

وفي هذا الإطار الجغراف/ سردي نصل إلى البناء الروائي/ في هذه الرواية، الذي يزداد جمالية بتعدد (الرواة) وكثرة الشخصيات وارتباطاتها الزمانية والمكانية الأمر الذي يوحي بالتمدد الجغرافي والتوسع التاريخي، والفضاءات التي تقترب من فن السيرة سواء الغيرية أم الذاتية، وهذا يفرض على الروائي/ خالد اليوسف أن يتنامى بين البطل المطلق، والراوي العليم الذي يرسم شخصياته وينطقها بما يخدم النص الروائي وهذه جمالية سردية يغبط عليها خالد اليوسف، وتحسب له تجديداً وإبداعاً وتطويراً للتجربة السردية/ الروائية.

وأخيراً نصل إلى أبرز الجماليات السردية في هذه الرواية وهي اختيار (الموضوع /الأم) والذي تتفرع عنه العديد من الموضوعات الجانبية لكنه يصب في الواقعية بنصيب أكبر أو ينطلق من الواقع الحقيقي. فقد استثمر الروائي خالد اليوسف، واقع الوباء الكوروني عالمياً ومحلياً، وانعكاساته الثقافوية وفلسفة الحياة والموت والاستعانة بالموروث المتعارف عليه في كل من نجد والحجاز، والسرد التاريخي عبر المدونة الطبية والوبائية من المعاصرة إلى الماضوية، وتوظيف هذا الواقع الوبائي ليخرج لنا بنص فاتن وجميل فيه تجريب وإبداع، فيه نَفَّسٌ جديد ومتعة قرائية تنضاف إلى مانسميه (أدب العزلة) أو (أدب الجائحة).

وهكذا يتنامى خالد اليوسف مبدعاً مقروءاً، وكاتباً تجريبياً، وروائياً استثنائياً، ننتظر منه المزيد والجديد.
والحمد لله رب العالمين.